النهار ١٩ أيلول ١٩٨٤

الفكر النابع من الهوية

ميشال شيحا، نحن أو الموت

إذا كان بعض المفكرين يتناولون الواقع بعد حدوثه فيتكلمون عن الماضي ويحاولون بناء الحاضر على صورته، أو يتناولون الواقع قبل أن يحدث فيتكلمون عن المستقبل ثم يحاولون بناء الحاضر على صورته، أو يتناولون الحاضر بعد أن يقللوا من أهمية بعض معطياته لتستقيم الصورة، فميشال شيحا هو ضد هؤلاء جميعا. إنه ينطلق من فكرة أن هذا الواقع شيء رائع، شيء حي له قوانينه ونظمه التي يسير عليها، وليس هناك شيء أرقى أو أعظم أو أكثر ضرورة من العمل على جعل هذا الواقع، أي هذا المجتمع ينمو بطريقة طبيعية لأن في ذلك "موتنا وحياتنا". ومن هنا قدسية كل ما يمت الى هذا الواقع بصلة.

لم يكرر ميشال شيحا كلاما في كتابته مثلما كرر النصيحة بالمعرفة. وضع محاضرته "لبنان اليوم ١٩٤٢" تحت الشعار "إعرف نفسك بنفسك". وظل يأخذ على السياسيين والمفكرين طوال عشرين سنة ١٩٤٣ إلى ١٩٥٤ مخالفة هذه القاعدة : "يجب التصديق أن اللبنانيين ذوي المسؤولية في الشأن العام لا يمارسون الحكمة القائلة " إعرف نفسك بنفسك". (١)

ولكن ما هي المعرفة التي يطلبها. ما هي المعرفة التي مارسها ؟ إن فكرة الإعتراف التي خرج بها جان سالم (٢) كصفة بارزة لكتابة ميشال شيحا هي صحيحة فليس هناك شيء لم يوفه شيحا حقه من العناية سواء في الطبيعة أم في شؤون الناس. "فالزهرة" و "الحصاة في الطريق" و "النار في المدفأة" و "الظلال في الحديقة" الى "إطلالة الفصول" يسجلها يوما فيوما بنظرة دائمة التعجب، الى كل ما تقع عليه العين أو تتأثر به الحواس. وفي شؤون الناس يمر من توافهها الى عظائمها بالنظرة الثاقبة الهادئة المتزنة كأنه يحكم على هذ العالم وهو خارجه.
ولكن في قلب هذا الاعتراف بالحياة بأمورها وأشيائها اللامتناهية وبحركتها المتجددة يتميز شيحا بالفصل الجازم لبعضها عن بعض وبوضوح الأولويات في السياسة. فالشعر عالم كامل يعيش فيه للشعر وحده ولا يدخله أي شيء آخر. والروح عالم كامل يعيش فيه لشؤون الروح وحدها. وللإقتصاد وقته الذي يكون في شيحا رجل اقتصاد وصاحب مصرف دون أن يتعارض مع الشعر أو الروح.

وفي حياة المجتمع اللبناني يعرّف شيحا الواقع بدقة وشمول قد يجاريه فيهما غيره وقد لا يجاريه ولكن يميز معرفته وضوح سلم الأولويات. فهذا الواقع عنده شيء حي : "حان الوقت لكي نخضع النظرية الصلبة الجافة للروح الذي يضطرب والجسد الذي يختلج". والأمراض الجديدة التي تصيبه لا يجب أن تكون أقل حظا للعناية من الأمراض المزمنة : فالتراخي عند الموظفين في الصيف "من عدم العمل على تلطيف ظروفنا المناخية داخل المكاتب"، وترك واجب الدولة على عاتق "موظفين قد يكونون مندفعين جدا وماهرين جدا ولامعين جدا ولكنهم مرهقون"، هي أشياء تجب العناية بها لأنها في النهاية كالعلل الكبيرة مثل الصراع الطائفي وغيره تشل فعلية الحياة.

ولأن الواقع شيء حي فمقياس التعامل معه هو احترام حياته. من هنا المعرفة عنده غير كافية بذاتها بل يجب معرفة علل هذا الواقع ومعرفة وسائل العلاج ومعرفة ردات فعل الواقع الحي المعين على نوع وسائل العلاج

المعين. فليست أفضل وسائل العلاج عامة هي فضلها حكما لهذا الواقع المعين : "فلأجل أن تطور لا يكفي أن تقلد" ، و "القانون ذاته قد يكون سبب ثورة... وعلى قدر تعقيد القانون يكون العصيان محتوما".

يجب أذن احترام الواقع. ولو أردنا هنا اثبات أقوال ميشال شيحا في هذا الموضوع لوجب نقل القسم الأكبر من كتابه "السياسة الداخلية" ولكن ما يهمنا خاصة هو طريقة تفكيره ومن هنا نتوقف عند الأفكار التي تبرز فيها طريقته أكثر من سواها.

إن الفكرة الأساسية عنده أن هذا الواقع واقعنا وأن يكون ذا علل أفضل من أن يكون جثة. وكل تعامل معه دون الأخذ بحقيقته، مهما تكن قاسية ، أي حياته، هو دليل عدم إيمان بحياته وفيه هلاكه. المشكلة الأساسية في النهاية عند شيحا في مفهوم السلطة في لبنان. فإما أن تكون السلطة موصولة بحياة المجتمع وممثلة قيمه العليا وإما أن تكون فوضى واندثارا. لا شيء خارج الحياة الا الموت وكل عمل لا ينطلق من الحياة هو الموت.

ومن هنا نقمة شيحا على مخالفة "طبيعة الأشياء" : "لا تطلبوا من لبنان أن يسير على عكس طبيعة الأشياء فالأفضل أن يعيش أعرج من أن يتحطم ولا يجب أن يؤول هذا في حال من الأحوال كدعوة الى الجهود". و "يمكن للنظرية أن تكون شيئا رائعا ولكن فقط عندما لا تتناقض مع الأمور البديهية عندما لا تتناقض مع طبيعة الأشياء".

"يجب السير في اتجاه الحياة. لا يمكن أن يستقيم الحكم لمدة طويلة معاكسا الحياة. أن تقول اليوم للرجال ليس عليكم أن تفكروا بل أن تطيعوا فذاك شقاء يقدر مداه الرجال الأحرار. إنه واحد من تلك الشقاءات التي يفضل عليها الموت" (٣).

ومن هنا تعلقه العميق بالتقاليد. التقاليد القائمة والتقاليد التي يجب أن تنشأ ونقمته على كل تقليل من أهميتها : "إن التقليد والتعلق بالأرض ينجياننا واذا كان علينا أن نلجأ الى المنظّرين المتفلّتين من كل قيد فهلاكنا احتمال وارد".

"إن اللبنانيين لم يعودوا يمنحون أنفسهم الوقت لنشوء التقاليد".

"لماذا نريد أن نغير قسرا ما صنعته الأجيال ؟".

ولكن إذا كان شيحا ناقما على مخالفة طبيعة الأشياء وعلى التنكر للتقاليد فنقمته على محاولات الإصلاح التي هي تأخذ بالواقع الحي، أعظم. وذلك طبيعي، فمخالفة طبيعة الأشياء والتنكر للتقاليد مواقف لا تحطم الجوهر، لا تمس الحياة، هي خطيئة ضد الواقع بالإهمال إذا شئنا. ولكن أن ينصب البعض أنفسهم مصلحين، أن يسمحوا لأنفسهم بحمل المبضع والعمل على الواقع وكأن هذا الواقع جثة فميشال شيحا يصبح ضاريا" تجاههم.

"لن يبدأ لبنان بالتطور الاّ عندما يحزم هؤلاء المصلحون العديمو الخبرة أمرهم لقبول أمثولة الجغرافيا والتاريخ أي قبول بديهيات الحياة".

"هناك حقائق على الأجيال اللبنانية أن تتناقلها جيلا عن جيل لأنهم لن يجدوها في كتب الغرب.

إن لبنان واقع فريد في العالم، هو بلد يتألف شعبه الشديد الإختلاف في أصوله من سلسلة طويلة من العائلات والناس المضطهدين من أجل معتقداتهم ومن أجل أفكارهم.

هذا الشعب الذي لا مثيل له، تزعم له عقول فتية، على قدر ما تخرج لنا الجامعات من مجازين ودكاترة، إنها تحمل إليه عقائد سياسية واجتماعية مبتكرة و"بدائع ليست في الغالب الاّ أشياء قديمة غير منسوبة الى أصل أو مشاريع غريبة في تعابير جديدة".

"إن الغرب، إذ يحمل الينا اختبارات ماضيه وحاضره كلها من خلال علومه الأخلاقية والسياسية، إنما هو لا يحمل إلينا أي شيء يأخذ بوضعنا الخاص، لا يحمل أي شيء يصلح في شكل أصيل لهذا الشعب الصغير "نسيج وحده" الذي هو نحن".

"إنالنقص الذي نشكوه في العقيدة السياسية واضح وضوح النهار. فالإمور تسير كأن لبنان يجب أن يحتذي أقوال معلمي القانون العام والإقتصاد السياسي في البلدان البعيدة لكي يصلح شؤونه".

إن الشبيبة في لبنان مضطربة قلقة بسبب التعليم الذي تتلقاه والأخبار التي تسمع والصورة التي تقدمها سياستنا عن نفسها، والقراءات التي بين أيديها، وما أسرع ما يكتشف أشدّها وعيا أن له دعوة الأنبياء فيروح عن حسن نية يحطم صروح الأجداد. ولا يمكن أن تكون النتيجة الاّ ما هي عليه : هذا التنافر في الأصوات الذي يضعنا فكريا على حدود الفوضى".

"إن ما نعمل لأجله اليوم هو غزو مخيلة شعب سريع التصديق".

هذا الكيان الذي رأينا شيحا يذود عنه ضد المتنكرين لواقعه وتقاليده وضد الراغبين في إصلاحه من خارج ذاته يجب أن نعرف الآن ما مقوماته وكيف تظهر طريقة التفكير من الداخل في معالجته.

إن المقومات الأساسية لهذا الكيان هي القيم (والعقيدة المرتكزة عليها) فالتنكر للقيم هو يهدم هذا الكيان، وغني عن القول إن هذه القيم ترتبط بالكيان ارتباطا عضويا فلجوؤه إليها ليس وظيفيا. إذ يعتبر أن لبنان "بلد أقليات تجمعت فيه لأنها مضطهدة بسبب عقائدها أو أفكارها".

"إن سياستنا الداخلية ينبغي أن تصحح" إن خطيئتها كخطيئة سياستنا الخارجية هي نقص في العقيدة. إن أشهرا من الحيرة تركت ظلا من القتام على مفاهيم جوهرية". و"إن النقص الذي تشكوه في العقيدة السياسية واضح وضوح النهار".

"إذا ظلت قيمة المواطن اللبناني آخذة في الإنحدار فهذا البلد هو من الناحية السياسية بلا مستقبل".

"إننا كرجال أعمال وكرجال سياسة لم نعد نميز بين الحسن والسيء بين ما يجوز وما لا يجوز".

"إن ما نحتاج إليه حاجة ماسة، إنما هو عقيدة، عقيدة إدارية".

"إن بلدا كلبنان لهو محتاج في قمم مؤسساته إلى تقليدية صارمة والى صلابة والى إيمان. وإذا فقد مبرر وجوده الذي هو من طبيعة الروح والأخلاق قضي عليه".

"إن عافية السياسة اللبنانية هي في الأخلاق فوق ما هي في القوانين". و "إن الإصلاح الأول في لبنان في وضع تدرج للقيم وفي تطبيعه على الأمة".

الجديد النابع من داخل المجتمع في فكر شيحا، هو أولا أن القيم الروحية عنصر تكويني في البنية اللبنانية. فإذا كان شعب لبنان مؤلفا من أقليات "تجمعت فيه لأنها مضطهدة بسبب عقائدها أو أفكارها" فذلك يعني أنها تركت مواطنها الأصيلة لتحافظ على قيم تعتبرها أهم من الأرض. والقيمة التي هي في نفس صاحبها أهم من الأرض

قيمة تتصل بالجوهر وتتصل بالبقاء. فهذه القيم التي حاول اللبنانيون إبقاءها عندما حملوها من مضطهداتهم هي تبقيهم لأن الإنسان لا يبقى ولا يتطور لأجل نفسه بل لأجل غاية أو رسالة يعتبر نفسه مؤتمنة عليها. ولهذا نجد عند شيحا أن لا بديل من القيم إلاّ الموت "فنحن، كما نحن، لا خيار لنا إلاّ بين المحبة والموت".

فؤاد الصياح

- جزء من فصل دراسة معمقة في جامعة الروح القدس ، في إشراف الدكتور ناصيف نصار، عنوانها "الهوية الجماعية في لبنان".

(1)نشير إلى هذا المصدر باسمه المعرب : السياسة الداخلية. الصفحة ٢٨١ – ٢٨٢

(2) Jean Salem : Introduction à la pensée politique de Michel Chiha, Lib. Samir, 1970, p.64 et suite.

(3)ميشال شيحا، تسابيح، بيروت ١٩٥٤، ص ٩٨